زلّة أخرى للحكمة

جريس سماوي

الكتاب :
زلة أخرى للحكمة
شعر: جريس سماوي
التاريخ يناير ٢٠٠٥
رقم الإيداع:١٨٧٧/٢٠٠٥
الترقيم الدولى :

رئيس مجلس الإدارة
محمد حامد راضى

تصميم الغلاف : حامد العويضى

العنوان والتليفون
٥ ش مصطفى طموم
- المنيل- القاهرة
تليفاكس ٣٦٥٥٤٨٧

الإهداء

إلى أمِّي التي علَّمتني الأبجدية

إلى أبي الذي علَّمني الشِّعر

كتبت قصائد هذه المجموعة في الفترة ما بين

2004-1987

اشتعالات

كلام

مرّي على الكلماتِ واختاري

كلاماً ناعماً كالغيمِ ،

مرّي

هدّي على نبعي كحلم يمامةٍ

وتطهّري برهافة العطرِ

وتهجّدي في ظلّ روحي

واغمري بالماء
أجراسي وسري .

تبدو القصيدةُ في يديكِ فراشةً
وتفرُّ من إيماءةِ الحبرِ
وأظلُّ عند حضورك الشّفافِ أميًا
يُراوحُ ، ساهم النظرات ،
عند بدايةِ السطرِ

عرِّي جناحك واتبعيني
في المدى المستور خلف غمامه ، عرِّي
واستدرجي نحل الخرافة كلَّه
لفضائه المسكونِ بالسِّحرِ
لك ما تبقَّى من نبيذ الروحِ ،

بوحُ جرارها بنداوةِ الخمرِ

لك كهفُ أحلامي الذي

أويتُ فيه غزالةَ الخدرِ

لك في الهوى تفاحتي الأولى

عذراء دامعة

كخطيئة الشعرِ .

1988

طقوس

أذوبُ*،

كما يسجد الشمعُ

في لا نهاياتِه

كما يسكب الضوءُ في الماءِ

كلَّ غلالاتِه

حينَ ألمحُ غيمةَ حزنٍ

تمسُّ ذؤابةَ روحكِ

يا أجمل الملكاتْ

أيّ أنثى من النار أنتِ ؟

سموتِ كمثلِ ابتهالٍ عتيقٍ

وجرَّدْتِني من قداسة صمتي

وأيقظْتِني من بهائي

وأشعلتِ في ملكوت الحجارةِ ،

في هيكلي ،

أجمل المعجزاتْ

فإلى أين أهرب منكِ ؟!

وأيُّ مساء سيؤوي

دمي حين يَعْرى ؟!

وفي أيِّ كهف أخبِّىءُ موتيَ

من سوف يحضنُ في رقَّةٍ

جَسَدِي

ويقيم الصلاة !!

1987

التحيَّة

بجناحينِ مِنْ ألقِ الضوء مرَّتْ ،

وألقتْ على تعب الروحِ

أغنية من تحيتها العابرةْ ،

ومضتْ

خلفتني رماداً وأغنيةً حائرةْ ،

ومضتْ

مثل حلمٍ جميلٍ مضتْ .

ليتني لم أكنْ متعباً حين مرَّتْ

ليتني لم أكنْ نائماً في ممرِّ الدخانْ

ليتني لم أكنْ مثقلاً بضبابِ المكانْ

كنتُ أدخلتها في خبائيَ

دثَّرتها برموشيَ ،

أجلستها فوق عرشي ،

وهيأت تاجاً لها من جُمانْ

كملاكٍ صغيرْ ،

بيدين من الفضَّةِ السَّاحرةْ

وفمٍ مثل حبةِ توتٍ مقدسةٍ

وجناحين من ألق الضوء

مرَّتْ ،

وألقت تحيتها العابرةْ

خلفتني رماداً وأغنيةً حائرةْ .

1987

عاشقة

- من هو ؟

وأرختْ على حيرة الرُّوح أمِّي السُّؤالْ

وراحتْ تفتِّش عينيَّ عنهُ

وتبحث عن ظلِّه في ثيابي

وتوغل في لومتي وعتابي

وتسألني :

من هو ؟

وداريتُ صمتي

وغالبتُ دمعي

وآليتُ ألاَّ أقول لها من هو .

- من هو ؟

وحلَّق حولي الضبابْ

وأشعلني البرقُ

حلَّت بي النارُ . .

ماد بي الملكوتُ . .

ودارتْ بي الريحُ . .

هزَّ دمي رعشةُ واضطرابْ .

وآليتُ ألاَّ أقول لها من هو .

قُبلَة

دائرتانِ من الضَّوءِ

ترتعشان

تسيلان

مثل نبيذٍ عتيقٍ

وتختلجان

هما أجمل الهندسةْ

وفمانْ

يقرآن كِتَابَ الغوايات

من دونما مدرسةْ

رغبتانْ

تبحثان عن الروحِ تنجذبان

وتبتعدان وتندغمان

هما جمرتانْ

تشعلان المكان وتأتلقانْ

دائرتان فمانْ

منفلتان من الوزنِ

غامضتانْ

لو انِّيَ يا أمُّ بحتُ

لما بقي الكون سرّي

ولي فيه هذا السنى والألقْ

لما كنت أطلق من راحتيّ

طيوراً من النار

تزرع هذي السما بالأرقْ

لما كان لي كل هذا الفضاء ،

لما حلّق القلب في ملكوت المساء ،

وطاف يوزِّع أحلامه في قلقْ

لو انِّيَ يا أمُّ بحتُ ،

لحطَّ على شعريَ النجمُ

في ألمٍ واحترقْ

هو البحرُ فيه المدى غامرٌ

وبه القلبُ يخفق في منتهاهْ

هو النارُ إنْ مسَّ روحي

احترقتُ مطهّرةً في بهاهْ

له الريحُ يا أمُّ

لا تفلت الريح من خيله أو خطاهْ

له البرقُ يوقظُ عتم الطريق به

وهو ليلاً عصاهْ

- من هو ؟

وخفتُ . . ارتجفتُ . .

صمتُ . .

وأغمضتُ عينيَّ حتى أراهْ .

1987

هما نغمتانْ

هاربتان من العود

صعلوكتانْ

تركتُ الربابةَ عند سرير الحكايات في الحقل

سادرةً في الأنين

وأطعمت صاحبتي عسلاً ،

أكَلَتْ

و ما أخبرت أمَّها

وأنا

ترك النحلُ فوقَ فمي لسعهُ

واعترى شمعهُ

الذوبانْ

1999

وردة

حملتْ بتيهٍ وردةً في راحتيها

وتلمّستْ أوراقها الحرّى

برأسي إصبعيها

ورنَتْ إليَّ بمقلتيها

وببرهة رفعت إلى الشفتين وردتها

وضمتها إليها

فتساءلت عيناي

من منهما تستنشقُ الأخرى

وتدنيها إليها! .

1987

صَلاةُ الجسد

سأسجدُ قرب ضجيج الجسدْ

وأرفع كفَّين ضارعتينِ

إلى قبتيه السماويتينِ

وألقي بخوري على جمره المُتَّقِدْ

سأتلو صلاةً بدائيةً بين أركانهِ

وأشدو بترنيمتي بين كثبانهِ

وأغمض عينيَّ قرب الرخام المقدَّس

حينَ تشفُّ السماواتُ لي أو تعدْ

ويرقص في الصَّدر زوجُ حمامٍ

ويعلو قليلاً

ولا يبتعدْ

فسبحانك اللهُ

يا رافعَ النَّهد من دونما رافعٍ أو عمدْ

سأسجدُ قربَ ضجيجِ الجسدْ

أنا أجملُ الفتية الساجدين

لهذا الحرير

وأجمل من فيه صلّى

وفيه تجلّى

وفيه اتّحدْ .

1989

«ماشا» وأغنية الغجري

سأتبعُ «ماشا» إلى آخرِ الأرضِ ،

أرقبُ مشيتها

وهي تمضي إلى البحرِ ،

أعزفُ لحني البدائيَّ في خفَّةٍ

خلفها

وأداري به وحشتي وضياعي

سأشعلُ قلبي

لكي أتهجّى خُطاها

وأهجرُ من أجلها

متعتي ومتاعي

أنا سارقُ الخيلِ ليلاً

وسائسها ،

ومدّجنها في المراعي

بقيثارتي سوف أسحرُ كلَّ

الثعابين

أرقصُ مثلَ عريسٍ من الجِنِّ

منتشياً

وأغنّي لـ «ماشا» الجميلةِ

وهي تسيرُ إلى البحر

حيثُ الهواءُ كسولٌ

وحيث المدى قاربي وشراعي .

هناك . .

أقيمُ خِباءً شفيفاً

وأنسجهُ من حرير القمرْ ،

وأهدي لـ «ماشا» الأميرةِ

ياقوتةً وجواداً

وأمضي بها في المساء إلى خيمتي

خيمتي من هواءٍ

وبيتي غبارُ السفرْ ،

هناك أبيتُ

بلا مسكنٍ أو سريرٍ

فلا ينبغي لأميرِ الغجرْ ،

وفارس تجوالهمْ

أنْ ينامَ ، ولو ليلةً ،

تحت سقف من الطَّين

أو تحت ظلِّ الحجرْ ،

لأنَّ الذي أوجدَ

الغجريَّ المغامرَ ، في البدء ،

أوصاه

أنْ لا يقيم بيوتاً

لأنّ الفضاء له مسكنٌ

ولأنّ العراءَ له مِنْوَدٌ

وكفنْ

هناك . . سأفرشُ أحلامَ روحي

العصيَّة كالنَّار

أرمي لـ «ماشا» عباءةَ روحي

لكي تستريحْ

هناك أعلِّق نجمَ السَّماءِ البعيدَ

لها حارساً

كي تنامَ ،

وأوقفُ بين يديها الندى خادماً

والضِّياءَ على بابها تابعاً كالمريد

وأربطُ ظبيَ المسرَّاتِ

من قرنِهِ العاجِ

كي لا يشيحْ

هناك . . هناك

أمسِّدُ سُودَ جدائلها بيدي

وتغفو على كتفي

حين أرمي عباءة قلبي

لكي تستريحْ

خذيني إلى البحر «ماشا»

خذيني إلى ملكوت الطواف

الذي ليس يفضي إلى غايةٍ

واصنعي لي حساءً لنأكلَ

طاردتُ بالأمس ديكاً وأرنبتين

وأحضرتُها وأنا في طريق القُرى

وغافلتُ بائعَ خَمْرٍ بمنعطفِ السوقِ

ثم سلبته قارورةً من نبيذٍ

وخبأتها في قميصي

سأحتطبُ الآنَ

ثم أهيِّءُ ناراً

أعدِّي لنا الديك «ماشا»

أعدِّيه ثم اصنعيه حساءً

لنأكلَ ، نشربَ ،

ثمّ ننام معاً

ننام بلا مَسْكَنٍ أو سريرٍ

فلا ينبغي لشتيتينِ

أن يقطنا منزلاً أو سكنْ

لأن الذي أوجدَ

الغجريَّ المغامرَ ، في البدء ،

أوصاه

أن لا يقيم بيوتاً

فكلُّ البلادِ وطنْ

1989

بابُ الماءِ

البحر

منذ أسرارِه ،

منذ أحلامه المصطفاهْ

منذ أَنْ أَشْعَلَ الأرضَ

ذات شتاءٍ بعيدٍ

ومنذ خفايا رؤاهْ

منذ أمطارِهِ المشتهاهْ

منذ أَنْ دَقَّ أوتادَهُ في العَرَاءِ
وَغَطَّى المساءَ بأستارِهِ ومضى ،
وهو مستغرقٌ في السديمِ
يرى كلَّ شيءٍ
ولا شيءَ قط يراهْ

الذي علَّق الأرضَ في دورقٍ من مياهْ
الذي مدَّ أسفارَهُ للبعيدِ
ورتَّبَ للمبحرينَ طريقاً
وللعاشقاتِ هَدَايا من اللؤلؤِ
الغامض الغرِّ
والرغبةِ المبتغاهْ

الذي بمناجل أمواجه

اجتثَّ من فِضَّةِ البدر ، ذاتَ مساءٍ ،

ذؤاباتها

ثم صَاغَ لجنيةِ القَاعِ تاج الخفاء

وعقد النجاهْ

بتباهٍ جميل

أعانَ الرعاةَ العراةَ ، حفاةَ القرى

ليكونوا بهِ

أمراءَ على الماء

فاستأنسوا الوحشَ ،

وحش البحار العظيم ،

بمجد عصيِّهم المستدقَّةِ أطرافُها

وأتوا بالبعيد

وطافوا المدى رسلا وسعاهْ .

بالخفيضِ من الضَّوء مرَّ على خلوة النجم

ثمَّ رمى بالحصى عريه وارتداهْ

حين أوقفني ، مرةً ، موقفَ الماء ،

قال :

«أريكَ الذي لا يُرى

وأريكَ الذي فوق سرِّ الرؤى

ومدى الاكتناهْ»

كمثلِ نبيٍّ توجَّستُهُ . .

ارتفعت يدهُ فوق رأسي

وأغمض عينيه ، فاختطفتنا معاً

ريشةٌ فوق غيم الصلاةْ

قال : أمِّي ،

وأراني ، على صخرةِ المرتقى

دمعةً فوق خد الحياةْ .

1993

السابحة

بها يبدأ الماءْ

خافتاً وبهيّا

بها يتدرَّجُ نحو الأنوثة

مستسلماً ، طائعاً ، وندياً

لها ينحني ،

ينطوي تحتها ، ينثني
ليِّناً وطريّا

كحريرِ العروسِ يشفُّ ،
كروح المحبِّ يرقُّ ،
كأنفاسه
وهو يهمسُ ،
والماء صعبٌ
عصيٌّ
له روحُ مُهْرٍ عنيدٍ
ولكنها امرأةٌ باهرةْ ،
ولها سرُّها ، ومفاتيحها الساحرةْ
ولها عريها وهو يخلو إليها
شفيفاً ، شهيّاً ، خفيّا

ذراعٌ على الماء مسحوبةٌ

وذراع معلَّقةٌ في الهواءِ

تشيرُ إلى الموج حتى تمرَّ

فيرتفعُ الموجُ صفّين من حرسِ الماء

يلتفت الرأسُ ذات اليمين وذات الشمال

وتنساب أنثى الحرير وتنثال

أيَّةُ معزوفةٍ تتهادى على الماءِ

بين يدي ما يشفُّ من الموج والنغماتْ !

وأميرةُ مَنْ هذه المستريحة

بين وصيفاتها الصدفاتْ !

أَيُّ أُبَّهةٍ حول هذا المقدس من عريها

والمضيءِ البَهي من الجسدِ الغيمِ . .

ثمَّ ذراع على الماء مسحوبة

وذراع تشير إلى الشمس

طالبةً من وصيفتها العاليةْ ،
أن تطوِّحَ بالذهبيِّ المقصَّبِ
حتَّى تنشّفَ ما خلَّف الماءُ من هذيانْ

غريرٌ هو الماء
فيه بهوتٌ
ينوسُ أسىً من عذاباتهِ
ويراوحُ في لُجة الزوغانْ

وهو العصيُّ
ولكنَّها امرأةُ اللازمانْ

تغادر أنثى البهاء المقدَّس
تاركةً خلفها البحر وهو يذوبُ

وفيه اضطرابُ المحبِّ هوىً

وله في الهواجس

قلبُ المتيَّم في الخفقانْ

1993

امرأةُ الرصيف العائم

فَوْقَ رصيف على الماء ،

والليل مستغرقٌ في هلاميةِ الوَقْتِ ،

تجلس حوريةُ البحرِ

فاتنةً وبهيّةْ

تضيءُ السَّماءُ العجوزُ قناديلَها

وتنوسُ قرى الله عبر المجرَّات ،

ترعى «الثريا» نعاس الفضاء

وتجثو على عتباتِ الهواء العليَّةْ

يعلِّق ميزانه «المشتري»

وتؤجِّل ميقاتها النجمةُ الساحليَّةْ

وحورية البحر

مفتونةٌ بأثيرية الليل ،

تجلسُ فوق رصيفِ المياه

مبللةً بالرذاذِ الخجولِ

تنادم أحلامَ قلبي العصيَّةْ

إلهة «إيلة»(*)

(*) الأسم التاريخي لمدينة العقبة الساحلية الأردنية .

ذات الحرير الطويل من الشَّعْر

والفاتن المرتخي من حبال السنى

سُلّمي للسماء القصيَّةْ

بعينين ماكرتين

ووجهٍ شهيِّ الشذى

وفمٍ غامضٍ كالأماني الخفيَّهْ ،

تعابث روحي

وترمي شباك الشقاوةِ

حول حصاني

وتصطادني دونما شبكةْ ،

دون خيلٍ ودونَ مطيَّةْ ،

بقرطَيْنِ من نارِ أسلافها السحَرةْ ،

وإغفاءة هي كلُّ الكلام ،

بما علمته لها من دلال الأنوثة

جداتها الغائبات ،

سليلات أنثى الخرافة ،

توفظ ذئب الحواس

وتفتح بريةً وكهوفاً بدائيةً

وهي تستدرجُ الوحشَ

في داخلي

نحو نارِ مفاتنها البربريةْ

تذوبُ أحلامها في الهواء

وتفتح ، مزهوةً ، قمقم الغيبِ

يحني الدخان النبيل

مسراته الراجعات ،

أمامي

ويفرُك كفَّين مبتلتين بماء الأماني .

البهيةُ بين بنات الشواطيء والماء

بنتُ الرهافة والبحر ،

كاهنة الريح ،

ترسي مراكبها في الخفاء

وترسل أتباعها الجنَّ نحو القرار

السحيق

لكي يجمعوا صدف المستحيل

ومرجانَهُ

في سلالِ الفراغِ الندِيّْ

هل رأى الماءُ شَعْرَ الأميرة

منسدلاً كالحريرِ الخرافيِّ

وهي تسيرُ على الرَّملِ حافيةً؟

أو رآها أبوها العميق

الذي يرتدي الزرقةَ الحالكةْ؟

هل رأت أمُها السمكةْ؟

هل رأت أختُها حسنها

وهي طالعة من حنين المحارات

كي تأخذَ نزهتها الموسميَّةْ!

إلهةُ «إيلة»

حورية البحر

من أين جاءت؟

وهل يخرج البحر دوماً عذاراهُ

للأنس

من دونما موعدٍ ،

هل تتوهُ الأميرةُ عن قصرها؟

هل تضيعُ النبيِّةْ؟

هنالك

فوق رصيف على الماء

تجلسُ امرأةُ النَّار

ماذا يخبئ هذا الحريرُ الطويلُ

وماذا تخبئ في كهف أسرارها

من ندى الضحكات

بماذا يعدْ

فمها وهو يعزف بالرغبات

على وتر الماء

ألحانَهُ الغجريةْ؟!

1993

سورة الماء

أنا الماءُ

حين أَمَسُّ الهواءَ

يذوبُ ،

وحين أَمَسُّ الصخورَ

تذوبْ

وإنْ جرَّني النهرُ

بين جبال القرى

بملاسة روحي

أحيل جبال القرى

أثراً وندوبْ

أنا بالطراوة عريت نهدَ الغيومِ

فمدَّ الثرى فمَهُ . .

مال ريحُ الصَبا والهبوبْ .

أنا الماءُ

فاضت حواسّي على الأرض

فانشق نبعٌ

وفاضت سهوبْ

غزوتُ الممالك

أسقطت في البحر كبرى الجزائر

طفتُ المدى

ورسمتُ الغروبْ .

دخلتُ الأساطيرَ بالصولجان

فألَّهني الناسُ

واستقبلتني الشعوبْ

أنا الماء بين يديَّ تعرّى الصبا

والعذارى اغتسلن بعطري

فَأَنَّتْ شفاهٌ ودقت قلوبْ

أنا الماءُ

حين أمسُّ الهواء

يذوبْ

ولكنَّني ،

إذْ أمسُّ النساء

أذوبْ

1987

مَطَرٌ وتمثالٌ

تنضو قميصَ الماء
عن تفاحها البريِّ في خَفَرٍ ،
فينخطفُ الأميرُ

تجلو الغوايةُ نهدها
وتمرُّ في الأشهى ،

تعيدُ ممالكَ الشهواتِ نحو شتائها الأبهى ،

وينشدهُ الخريرُ

والماءُ يشعل شهوةَ الأنثى

ويحبو مثل طفلِ الغيمِ يحبو

كالندى ،

فتكاد تصحو الفتنةُ الرعناءُ في الطَّقْسِ الشفيف ،

تكاد تصفو إذ يراودُها السريرُ

وتفرُّ نحو الغيبِ . .

والعريُ اشتعالٌ باذخٌ يسمو ،

فيرتدُّ الرُّخامُ إلى مغاورِهِ العتيقةِ

قلَّما يرتد هذا الماكرُ المطليُّ

بالأنثى إلى أبوابه الأولى

ويندلحُ الخريرُ

والماء يستجلي العقيقَ

يعاتب البلورَ

يمسح شهقةَ الوردِ الكسيفِ ،

يضيءُ كهفَ الغيبِ ،

يصحو ،

والماءُ يسفُو

غَيْمَهُ العالي

على الحجر المسجَّى في السرير المشتهى ،

فيكاد ينفتقُ الشعاعُ الغرُّ

والألق الغريرُ

والماء يفضحُ سرَّ ما بحدائق التفاحِ

يفضح عطرها الحافي ،

ويخلو بالحواس ،

يجوسُ فوق ملاسة الحجرِ المُضيء بها

فينتشر العبيرُ

وهي انبلاجُ البرقِ والمعنى ،

وهو المُعنَّى والفقيرُ

وهي الفضاءُ الطلق

والجسد المنيرُ

وهو الأسيرُ

لكأنَّها امرأةٌ

تلامسُ شهوةً أخرى

وكأنَّهُ الذكر الضريرُ

1994

زَبَدُ المَوْج

أيُّها الناسُ

خلفكم البحرُ . .

عاد الصدى

وتخافت مثل شعاعٍ غريقْ

أيُّها الناسُ

ليس لكم . .

وانتهى مثلما زبد الموج

انتهى في القرار العميقْ

والعدو أمامي . .

العدو يقاسمني الماءَ

والشاطىءَ الضيِّقَ المرتخي عند باب المضيقْ

وأنا لا أفيقْ ،

نائمٌ فوق رمل المرارات

حولي انكساراتُ أهلي ،

وسائدُ رأسيَ زلاّتُهم

وكآبة روحي نبيذي العتيقْ

ويمضي الأسى

إلى البحر تفضي الكآباتُ

يطرحُ المرءُ في البحر أحلامه ويريقْ

أيُّها الناسُ

يمضي بِيَ الصوتُ

لا ثَمَّ ناس

ولا من صديقْ

1993

مدارات أولى

العناصر

أعدني إلى اللهْ

أعدني إلى روحه البكر روحاً ترفُّ

أعدني إلى وجهه الأوليِّ

جناحاً يثير السديمَ

ونجماً يشفُّ

ودعني بعكّازة الربِّ أسعى ،

أطوِّفُ في الأرض كالريحِ

أفتح باب الندى ، وأهفُّ

أعدني إلى أول الكونِ

حيث المدى نيِّءٌ

والجبال عجينٌ

وروحي هلاميةٌ لا تجفُّ

أعدني . .

أعدني إلى اللهِ

روحاً ترفُّ

كيف لي أنْ أعرِّي الهواءَ

وأنضو قميصاً كسولاً عن النارِ

أخلعُ عن رقة الماء هذا

نعاس الغزالاتِ . .

أرمي عباءات هذا التراب

وأصبو إلى اللهِ

أصبو إليهِ ،

وأهفو

سأعمِّد هذا الترابَ دماً

وألسنةَ النارِ روحاً مقدَّسةً

وأعمّد هذا الهواء الشهادةَ والموتَ

هذي المياه القيامة والبعثَ

أمزجُ هذي العناصر

أنفخُ فيها جنوني

وأصرخ : كوني

وأرتاح من شهوة الخلق

ترتاح روحي وتصفو

وأرخي جناحي على ما جبلتُ من الطين

أرخي جناحي وأغفو

1988

الصديق

جاءني من نعاسٍ بعيدْ
لم يُرِقْ دمعةً إذ رأى جثَّتي ،
قال لي : لا تنمْ ،
وانثنى باتجاهِ نشيدٍ جديدْ

مُتعباً كنتُ

مستغرقاً في الكآبةِ

منفرطاً مثل سورٍ قديمْ

سادراً في براري الغيابِ

السقيمْ

هاجمتني الخيولُ الخرافيةُ . .

اقتادني التيهُ في غيِّهِ

المرتمي في فراغٍ يتيمْ

شدَّني الصمتُ من شعر بوحي ،

وسدَّ فمي ،

ورمى كتبي في غموض السديمْ .

من غروب قصيٍّ أتيتُ

على صهوةِ العزلةِ الراجفةْ

حاملاً قلقَ الأرصفةْ ،

في إيابي ،

ورذاذ البحار الغريبة في غُرَّتي

وثيابي ،

والمدى خلف روحي

يُرتِّبُ صفَّ العماراتِ ،

صمت امتداداتها

في الفضاءِ البليدْ ،

والمساءُ الشريدْ ،

يقتفي ظلَّ خطوي

ويحشرُ في سلَّةِ الوقتِ

فوضى النهارِ المراوغِ

نهرَ المشاةِ ،

الزنوجَ ،

البناتِ الملولاتِ ،

تيهَ المصانع وهي تخاتلُ

تمضغُ عمالَّها السادرين

وتغمرُ أحلامهم

بالأسى والحديدْ

الرصيف الجليدْ

والرغيف الجليدْ

والحواس الجليدْ

من غروبٍ قَصيٍّ أتيتُ

وبي وجعي ،

من غروبٍ شريدْ

عندما جاءني صاحبي من نعاسٍ بعيدْ

هدهد الروحَ إذ فاجأتها

ارتباكاتُ أحلامها ،

باح بالسرِّ لي ،

ما بكى إذ رأى جثتي

قلت يا صاحبي وأبي :

إنّني من بقايا النساطرة التائهينْ ،

خانني أسقفي ورعاتي

ومدى الأبرشية ضاقتْ

به مِلَّتي ،

ضاق يا أبتي

- النساطرة انقرضوا يا بنيَّ . .

- ولكنني يا أبي لم أزلْ ،

إنَّ روما التي سرقتْ ديننا

مثلَما سرقتْ حنطةَ الروحِ

من كل أهرائنا

لم تزلْ تستبيح الذرى ،

هل ترى يا أبي ، هل ترى ؟

هَدْهَدَ القَلْبَ إذ فاجأته ارتباكاتُه

قال للبيت ربٌّ

فلا تغمض الروحَ في اللحظة العابثةْ ،

واتئدْ في المرارةِ والشكِّ

فالديكُ صَاحَ هنا صيحتين

فلا تنكر الربَّ في الثالثةْ ،

وفضاء الوطنْ ،

مثخناً لم يزلْ

بالكوابيس والكارثةْ

لا تنمْ ،

قال لي ،

وانثنى باتجاهِ نشيدٍ جديدْ

عندما جاءني من نعاسٍ بعيدْ

1988

الرغيف

مريضٌ بجوعاي ،

بالزالفين إلى كعبتي ،

بالحجيج

الألى انتظروا طَلَتّي

عند جسرِ التعبْ ،

وأنا لم أُطِلّ

مريضٌ بمن رسموا صُورتي ،

كهلالٍ ،

ومن لعنوا الحوتَ

من رقصوا كالدراويشِ

لكنَّني لم أهلْ

لأجل العذارى

اللواتي تأخَّر ميعاد زيجاتهنَّ

لأجل الحريرِ الذي ما أتى ،

والمناديل دون هدايا

ودون قُبَلْ

قلْ لهنَّ بأنَّ لصوصاً

على مفرق الدرب

قد سلبوا فضتي

واستباحوا حصاني
وأنَّ دليلي إلى الدرب قاتلهم وانقتلْ

مريض بأمي المريضة بي ،
حبة القمح تلك التي غُسلتْ بالعرقْ ،
والتي غادرت صاحب الحقل
محفوفة بالمُقلْ

مريض بمنكسرين كثيرين
لا أعرف الآن أرواحهم ،
لم أزرهمْ ،
ولا الغيم حيَّاهُمُ إذ هطلْ
قل لهم إنَّني حافياً لم أزلْ
قلْ لهم إنَّ ساحرة

سحرتني دخاناً ،

رمت بي

في شعاب الجبلْ

قلْ لهم أن يسيروا

إليَّ بسبعين سيفاً

وسبعين ألفاً من الأضحيات

وسبعين ألف حملْ

قلْ لهم يا نديم المرارات ، قلْ

1989

لنساء لم يولدن بعد

من جزيرة النساءْ

تلك التي على حدود الغيم

خلف بحرٍ غامضٍ وساحلٍ بعيد ،

سوف تحضرُ النساء

يحملن ورداً عارياً ،

وكأس خمرٍ ،

وندى وماءْ

مثل الضباب في صباح

الليلك الخجولْ

لباسهنَّ من رهافة الهواءْ

وشعرهنَّ النائم الكسولْ ،

يداعب استدارة الأثداءْ

والريح تحمل البهار الأنثوي نحونا ،

فتعبق السماءْ

إذ ذاك سوف يغمر الشبقْ ،

هذي المدائن الصفراءْ

فيولد الأطفال من رذاذه

ويهطل الشتاءْ

وعندها ،

سيفتح النعاس بابه لنا

لكي ننامَ حالمينَ بالنساءِ

العابرات نحو نومنا ،

القادماتِ من جزيرة خجولة كوردة المساءْ

تلك التي على حدود الغيمِ . .

خلف بحرٍ غامضٍ وساحلٍ بعيدْ

تلك التي ببابها الخفيّ

حارسٌ من النَّدى ،

وخيمةٌ من البهاءْ

1988

إِرْث

وارث اسمي

ووارث موتي

وسيفي ،

وسرج حِصانِي

وارث أيقونتي

ورداني ،

ووارث تاجي ،

وعرشي المرصَّع بالغيبِ والشِّعْرِ

وارث ماسي ،

يدي ،

خاتمي ،

صولجاني

وارث تعويذتي

وصلاتي ،

وأدعيتي ،

ومكاني

العنيدُ الذي قبل ألفٍ من السنواتِ

رَمَاني

بطعنته

في النزالِ البعيدِ ،

رآنيَ أمسِ وعاتبته

فبكى ،

ورثاني

2000

دعاء الورد

أيُّها الوردُ

يا ذا البهاء الخفيض . .

أنرْ

بأريجك ديجور نفسي

وطفْ

عُريها

بأقدامك الناعمةْ

وبارِكْ

بزيتك إطلالةً نائمةْ

في غدي .

وطوِّبْ

حشاشة يومي

وأمسي

وصوِّبْ بطهرك خطوي وهمسي

وطهّرْ رؤايَ وحسّي

ولمسي

وعلِّقْ

على غَبَشِ الروح

معطفك الأرجوان المبلل بالفجر

والمرتوي بالندى

والأماسي

ألا أيُّها الوردُ

يا ذا البهاء

ويا ذا الرجاء

ويا ذا المسرات . .

يا أيُّهذا النبيُّ المؤاسي

ويا أيُّهذا النبي المسمَّر بالحلم

والممتلي بالنعاسِ

1988

الخياناتُ والوعدُ

خيانة الفضة

فِضَّتي
جرَّت المعمدانَ من الرأس
ألقتْ به في طبقْ ،
ثم أهدته لامرأةٍ ماجنةْ

بثلاثين منها استُبيحَ دمُ الشمسِ ،

بيعَ ،

وأهداه بائعُه القبلةَ الشائنةْ

ثم أغفى على جرحه

ورماه الظلامُ

بحربته الطاعنةْ

فضتي خائنةْ

خيانة الورد

خانني الورد

أوقعني

طاف بي في فضاء التويج

وفاجأ ميسمه الاحتفال بروحي

وفي آخر الحلم في لحظة باعني

ثمّ ألقى برأسي إلى النهر . .

داس على جثتي ، داسني

عندما زارني ،

في الصباح الخجول

تضوَّعتُ من فرحتي

صار لي معبدي

صار لي كاهني

بشموعي أضأت سريرَ الندى

وفرشتُ له الهدبَ حتى ينامَ ،

أنا بيديَّ أزلتُ الحصى عن ثراهْ

وبعينيَّ صُنتُ هواهْ

وهو ما صانني

خانني الورد في لحظةٍ

خانني

خيانة النهر

لمْ يروِ زرعي ،

ولمْ يتهجَّ فصولي

ربيعي على باب مجراه شَحَّ ،

وَجَفَّتْ حقولي

تلعثم بالماء جيشي

وَفَرَّتْ خيولي

عطشتُ ،

وحين مَدَدْتُ إلى الماء كَفِّي لأشربَ

ما فزت إلا بطمي الوحولِ .

الوعد

سيشُّق السحابْ

طالعاً

مثل مهر قوائمه من نحاسٍ

وغرته البرقُ ،

عيناه نجمان متقدان

وفوضاه تشعل صمت الضبابْ

بجناحينِ من زئبقٍ غامضٍ

وصهيلٍ تضجُّ به الريحُ

سوف يجوسُ المدى والهضابْ

بشهابٍ وحيدٍ

بسبع نجوم يرافقنهُ

وبقوسِ قزحْ ،

سوف يجلو عن الأرض

هذا اليبابْ

سوف يعبث بالغيم

يفرد أحلامه البكرَ

يهمي بها

فوق هذي القِبابْ

حين يأتي

سأفرشُ كلَّ ثيابي له في الطريقْ

سأرمي عباءة روحي الوحيدةَ

حتى يمرَّ

وأرمي على دربِهِ

وردةً وعتابْ

لماذا تأخرتَ

يا أجملَ الخيلِ

يا مهرَ روحي الحبيب

الذي عقّني بالغيابْ ؟!

هكذا . . هكذا . .

طاعناً كلَّ هذا الخرابْ

هكذا . .

سيشقُّ السحابْ .

1989

فضاءات أخرى

كرسيّ الاعتراف

في الكنيسةِ

كان أبونا ،

أبو المؤمنينْ ،

كاهنُ الشعب ،

مستغرقاً في الوقارِ

سرقنا النبيذَ المقدَّسَ

وانسفح السرُّ

حتّى إذا قرعتْ أختنا الراهبةْ

جَرَسَ الدَّيرِ

لذنا إلى مقعد الاعترافْ

أُختُنا الراهبةْ

الفتاة العفيفة والواهبةْ

نفسها للنذور

رأينا أنوثتها

من خلالِ ثقوبِ الجدار

تسيلُ هناك على دَرَجِ الدير

لذنا سريعاً

إلى الاعترافْ :

أبانا الذي في السَّمَاء ،

أبانا الجميل الحبيب ،

الغفور المقدَّس ،

اغفرْ لنا يا أبانا ،

سرقنا النبيذَ المقدّسَ ،

ثمّ شربناه حتّى ثملنا

أبانا رأينا بقصدٍ

بكامل شهوتِنا

جسدَ الراهبةْ

ولمحنا كما يبرقُ الضَّوءُ

فضتها العاريةْ

يا أبانا .

وذات مساءٍ

وبعد اعترافاتنا

ونداماتنا

رأينا أبانا

ذا الحجى والمهابةْ

يُلصلصُ من فتحةٍ في الجدار

على جسد الراهبةْ

فلذنا إلى هيكل الربِّ

نسرق منه النبيذَ المقدَّسَ

حتّى نُطَهِّرَ أبصارنا

يا أبانا

2001

امرأة متخيلة

عينان راغبتانْ

والكحلُ من شِعْرٍ مقفّى بالنعاسْ

وخمارها كشف وإخفاء

وموسيقى الحواسْ

جسد على أسواره غجر خفيّون

الغلالة كلها رقص بدائي ونار

حولها صخب العراة .

وهي القصيدة لا تبوحْ ،

لكن تفوح بعطرها الغافي على عينين فائرتين بالرغباتْ

وهي الخبيئةُ خلف أستار المواعظ والتقاة

عينان عاريتان ،

حائرتان بالمعنى

وخلف نقابِها أسرارُها

كشف وإخفاءُ

نسك وإغواءُ

والكحل مبلول بأسرار النعاسْ

وخمارها بوح الحواس إلى الحواسْ

2004

فريسكو على جدار غائم

المكان : غيمةُ حلمٍ ما

الزمان : ذاتَ نبيذٍ بعيد

لوحة أولى

سـادنُ الـغـيـمِ ذاتَ لـيلٍ أتـاني

فاعتـراني من الـهوى مـا اعتـراني

قـال : بُحْ بـالمـنى ، ونمْ في جـداري

واجـترحني ، وجدْ بورد الأمـاني

من يـحـيـلُ الجـدارَ غـيـمـاً ويـنـسى

يـكـسـرُ الـلـيل تحـته ويـراني ؟

ما قبل التشكيل

منذ مليون عشقٍ وورد

ومنذ نبيذٍ كثيرْ

كنتُ أسكنُ رحم جدار العماء

الذي يفصل الكونَ عنّي

ويفصلُني عن مداري الأغنّ

كان يُبنى من الخوف

ثم تسامقَ حتّى

كأنَّ المدى
لا يُمنِّي
وحتَّى كأنِّي
تلفعتُ من رهبتي بالتمنِّي .

ملامح أولى لحرّاس النار

لرعاة المجوس الثلاثة

أمنحُ أجراسَ بوحي
أضمُّ لموقدهم نارَ روحي
وأسجدُ في حضرةِ الحائطِ الحجريِّ
وأشعلُ طقسَ العذابْ
وأنثرُ هذا الجسدْ
وأنثرُ هذا الترابْ

بورتريه أول (التروبادور)

حين أشعلتَ

عند جدار الحكايات نوماً جميلاً

تَسَامَى الكلامُ البهيُّ

تَسَامَى الهوى

وتَسَامَى بأستاره الأرجوانْ

طار قلبُ القصائد من شَهْوَةِ الشِّعْر

وارتجَّ طقسُ الزمانْ

عَرَجَ الكونُ

كانت عصاه الكسيحةُ

ترطمُ موجَ البلاهةِ في اللامكانْ

فبأيِّ الأساطير أغويت بنت الحكاية

كي تعشق الأشقياء !

وأيُّ تقيٍّ بعيدٍ تهجَّدَ في ظلِّ روحك

أيُّ سماءٍ ،

نمتْ تحت أقمارها المعجزات

وهزَّت براري مداها يدُ المعمدانْ !

بأيِّ كتاب تَلَمَّسْتَ شَمْعَ الرهافة

في الشمعدانْ !

وكيف دخلت إلى باحة الدير زلفى ،

على ظهر أيٍّ حصانْ !

بورتريه ثانٍ (الخائف)

تشبَّثْتُ بالعري

خفتُ - وهذا زمانُ المرارات والخوفِ -

جَفَّت هشاشتيَ المستحمةُ

في كربلاء العذابات

ضاقت بي النسماتُ بما رحبت

فلجأتُ إلى حجرٍ لا يرى كي أنامْ ،

حجرٍ أيقظته يد الكاهن المتعب المستهامْ ،

حجرٍ من قتامْ

هو الخوفُ يا صاحبي

جرنا من مساءاتنا

من رؤانا البعيدة ، من شوقنا

فأتينا هنا نحتمي بالجدارْ

نرتدي ظلَّه

نرتجي في سماه الأمانْ

حين لم تحمنا

كل هذي الجيوش الدخانْ

أو لمْ يدرك القلبُ

أنَّ الغبارَ الذي يثقل الذارياتْ ،

زائلٌ ؟

وبأنَّ الترابَ الجميلَ عصيٌّ على العادياتْ

هو الأفق – هذا الكسول –

سيفتح ، لا بد ، أحلامه للبناتْ

لا عتاباً سيمحو الدخان عن الأغنياتْ

لا أسىً سوف يمنح ضوء الأجنَّةِ

قدسية أو حياةْ

وَحْدَهُ القلبُ

تفضي سراديبُهُ للأسى

وهو يُعلي بأطيارِهِ الأمنياتْ

أتعثَّرُ في هاجسي

وأعلِّقُ أجراسَ معرفتي بالظنونْ

أمنح ظلي المرتق شرعية كي يكونْ

أنتحي جانباً

وأهزُّ برمحي زمانَ الجنونْ

أيُّ نجمٍ سيهوي

إذا ما اقترفْتُ الهوى

تحت ظل الجدار

وأيقظت غيمَ المجونْ ؟

جُثَّتي غرفتي ،

ودمي نغمي ،

واحتراقي اشتياقي ،

ودمعي معي

لا يفرُّ وإنْ

أسرجتْهُ الشجونْ

1988

هُوذَا يُولَدُ كالنخل

«مهداة إلى أطفال الانتفاضة الفلسطينية»

في الرواق المقدَّس

أخلعُ نعلي ،

أريقُ على هيكل النَّار

زيتَ الصلاةِ . .

أصبُّ دمي في كؤوسٍ

أقول : اشربوا

هوذا الآن سرُّ العشاء الأخيرْ

وأسجدُ حين تمرُّ الحجارةُ كالخيلِ . .

أسجدُ حين تُغيرْ

الخيولُ المضيئاتُ بالبرقِ

مرَّتْ هنا

نفضتْ عن حوافرها المتعباتِ

بقايا الغبار المقدس

وائتلقت بالنفيرْ

الصهيلُ يهزُّ الكواكبَ . .

وقعُ الحوافر يقرع بابَ السماواتِ

حتى إذا ما هوى الفتيةُ الشهداءُ

عن الصهواتِ

صرخت : ادخلوا جنتي ،

وادخلوا جثتي

وادخلوا في عبادي . . وناموا

أنا الأرضُ ، ليلٌ شفيفٌ لكم ، وأنا

لنعاسِ السَّنى

في مداكم سريرْ

القرى والمساءاتُ تنهضُ

محمولةً فوق فوضى الأزقَّة . .

والأرضُ تنفضُ عنها رذاذَ النعاسِ . .

الصباحاتُ مجلوةٌ

مثلَ أحصنة الحلمِ . .

والنهرُ يوقظُ مجرى المياهْ

المدى ينحني ،

والهواء يُطأطئُ أحلامهُ

كي يمرَّ الحفاهْ

زمانٌ بهيٌّ

زمانٌ يعلِّقُ أعلامنا في سماهْ

كنت أعلم أن تناسل ذريتي لم يمتْ ،

حين نمتُ قليلاً على ساحل البحر . .

ما أكثرَ الناس !

ما أكثرَ العابرين إلى طرقي ،

وما أكثرَ الداخلين إلى هيكلي بالصلاةْ !

بيدرٌ مسَّهُ الصحو . .

نجمٌ تجمعتْ اليقظةُ البكرُ بين يديه

فضاءٌ يعلِّقُ أقمارنا في المدى . .

شجرٌ يُنهضُ الأرضَ

مثلَ المُصلِّين

بحرٌ يعانِدُ بحارةً غرباء

وجيل من الغاضبين

يجرُّ العساكرَ من زهوهم

ويطاردهم في غبار النهارات

ما أجملَ العابرين

إلى طرقي بالصّلاةْ !

الطوابين صارت مصانعنا

والدخان الخرافي يصعد

نحو السماواتِ مثل ابتهالِ المساء . .

الجميلات عدن من الحقل . .

غادرن تين البساتين

ودَّعْنها ،

وجلبن السلالَ وعبّأنَها

بالحجارة والأغنياتْ

الصغارُ أتوا مثل نهر الضياء أتوا

من جميع الجهاتْ

شغبٌ رائعٌ يملأ الطرقاتِ

الممرات تكتظ بالشدو . .

ثمَّ ملائكة أشقياء

تمرُّ وتتلو صلاة الحجارة

تركض خلف

جنودٍ يفرّون . .

هذا ضجيجٌ بهيجٌ يلاحق جيشاً

صغارٌ يدوسون زهوَ البساطير

والأرض في نشوةٍ تبتهلْ ،

دورة ومدار

وخلق هنا يكتملْ ،

حجرٌ يشعلُ الصبحَ في أرضنا

يبدأ الآن تاريخنا

وأنا أترجى الحجرْ

داخل في فضاء من النار مزد لفاً

سوف أبني الحجارة

مثل الخطايا . .

وأرجم لوح الوصايا

سوف أجعل من راحتيَّ تكايا

لكي يتهجَّدَ فيها الخوارجُ والتائهونْ

سوف أخرج من راحتي وسلامي

أغادر واديَّ

أنهض من حفرتي

وأقيم مدايا

ليعبرْ إلَيَّ الجنونُ إذن

هل أريحُ البنفسج في حِضْنِ أمي

وأنسى أخي؟

هل أؤجل حُبِّي له

ريثما يعبرُ الشرسونَ ؟

فلا كنت ابناً لأمي إذنْ

لا . . ولا عرفتني دِمايا

نائماً بين ماءين كنت

كذئب قتيلٍ

مدمَّى الحشا

مستباحاً حمايا

عندما اقترب اللهُ من جثَّتي

صحتُ : لا تلمس الرأسَ يا خالقي

فهو ممتلئٌ بالحكايا

وخطاياي ليست خطايا

إن أعظمها أنني متُّ في وطني

كل يوم ثمانين مرةْ ،

ولم أكُ فيها شهيداً لمرةْ ،

ولم تتبع الحُسْنَيَيْن خُطايا

غير أنَّ المناخَ تغيَّر

والريحَ صارت مؤاتيةً

فليعدْ صوتُ أمي إليَّ إذنْ ،

أيقظي التمر يا أمُّ فيَّ . .

اسحبي من عذوقي

وذوقي . .

وهُزِّي دمي

سوف تسقط منه بروقي . .

واشعلي فيَّ نارَ الولادة . .

ها قد ولدتُ

سلامٌ عليّكِ

سلامٌ عليكِ

وحين أموتُ

سلامٌ عليّا

وحين سأبعث حيا

سلامٌ عليّا

1988

كما يرى الرائي

متعثراً بحرير أحلامي ،

مشيتُ إلى المدينة . .

حاملاً فوضايَ ،

منتعلا فراغي

لا تستريحُ الأرض من خطوي المريبِ

ولا تريحُ

متلعثماً بنبوءتي العطشى ،

ورؤايَ الغريرةِ ،

باختلاف الروح ، طقس عذابها ،

إذ تُستباحُ وتستبيحُ

وبضوئها الغبشيِّ

عريان الخُطى والروح والرؤيا

مشيتُ إلى المدينةِ ،

لم أكن وحدي ،

معي كانت تسير قبيلتي ،

وشياهها الكسلى ،

وشاعرها الضرير

ونارها الخَجلى

وكاهنها «سطيحُ»[1]

ومعي خيولُ أبي

وسائسها الكسيحُ

وكما يرى الرائي رأيتُ

كما يتلّمسُ المبهورُ أسراراً دخانيةً

كما الممسوسُ بالرؤيا

رأيت مدينةً ،

سوراً من البلّور

لا أبوابَ ، لا أبراجَ

فوق السورِ

---

(1)سطيح الكاهن : من أشهر كُهّان العرب في الجاهلية كان أبداً منسطحاً على الأرض ، لا يقدر على قيام أو قعود ، فإذا رحلت القبيلة وضع على بساط وحمل مع الركب .

ثمَّ منارةُ

وعلى المنارةِ سبعُ أفراسٍ

لها سبعون قرناً

تنطح السحبَ ،

اقتربت من المنارةِ

كنت وحدي في سديمِ الروح والمعنى

وإذْ صوتٌ يصيحُ :

هذي المدينةُ

لا تصحُّ بها النذورُ

ولا الذبائحُ والبخورُ

ولا المسوحُ

هي ما تجلَّى من غوايات ٍ

زنى معها ملوكُ الأرضِ

أسكرت الجيوشَ دماؤها

وبها رجاساتٌ تفوحُ

ولسوف يبكيها الملوكُ

ومن زنى معها ينوحُ

رجل يكلِّمُني بآياتٍ ،

وإذا التفتُّ له يشيحُ

بطيوفِ أسلافي استجرتُ

ولم يكونوا حاضرين

سوى خيالٍ واحدٍ ،

ونظرتُ ،

ها هو ذا شبيهي

نصفي الذي ما تمَّ . . ظلِّي . .

والتفاتته الجريحُ

رحماك . . رحماك

احمني مما رأيتُ

وكان ينأى ،

فاقتربتُ ،

وما رأيتُ سوى الخرائبِ ،

كان يعلوها ضريحُ

لكأنَّني هشٌّ

كأنَّ الأرض ريحُ

لكأنَّني وحدي ،

وقبالتي الدنيا

ومن فزعي أصيحُ

الحزن قافلتي ،

وأهلي سادرون ولا نصيحُ

أهلي . .

وأعلم أنهم عادوا إلى الصحراء

تتبعهم صلاتي

عادوا

تقودهمُ «البسوسُ»

وتقتفي آثارهم خيلُ الغُزاةِ

وأقول يا أهلي أنيخوا واستريحوا

لكنَّهم حين افترقنا

لمْ أرحْهُمُ أو يُريحوا

بكى نصفي الذي ما تمَّ لـمَّا . .

رأينا الَّليلَ دونهمُ يلوحُ .

بكى نصفي ، شبيهي حين تاهوا في المدى ،

ورأيت في الأفقِ البعيدِ

سيوفهم تنأى

وومِيضها يخبو

وتستره السفوحُ

وسمعتُ لحنَ حدائهم

في البيدِ يعرج خافتاً . .

وصدى صهيل خيولهم

إذْ بعثرته الريحُ

بكى ظلِّي . . شبيهي

روحُ أسلافي البعيدين الموات

بكى الضريحُ

رحماك . . رحماك

احمني مما رأيتُ

كما يرى الرائي رأيت مدينة

وبها المنائر ،

تدفع السُّحب ،

اقتربتُ ،

وإذْ صوتٌ يصيحُ

صوت يكلّمني

وإذا التفت له يشيحُ

نيويورك/ آذار 1990

قراءة في كفٍّ امرأة

رجالٌ كثيرون مرُّوا هنا

لمْ يقيموا كثيراً

ولكنَّ نقشاً أضاء

ودلَّ على دربهم قرب خطِّ الحياة

سدى ما أقاموا

سدى ،

وفيٌّ هواكِ ولكنَّ قلبك طفلٌ ومنكسرُ الخطِّ ،

منتثرٌ فوق كفّكِ ،

غاب الحبيب ، اختفى

أيُّ نجمٍ يدلُّ عليه . .

اختفى عند خط القدرْ ،

وانتظرْ ،

دوره في الرجالِ

ولكنَّ خطّاً قريباً من الرأسِ

مال إلى حيث لستِ تميلين

كيف تكونين عاشقةً لحبيبٍ وحيدٍ

وأنت مزنرّةٌ بقلوب الرجال؟

ابسطي الآن كفَّكِ ، راح الحبيبُ

اختفى ،

ولكنّهُ لم يزلْ في الخفيضِ من العمرِ

يظهرُ معتلياً تلّةً عند خط القمرْ ،

ويضيءُ قليلاً ويخبو

ابسطي الآن كفَّكِ

أنتِ محيّرةٌ

والطوالع غائمةٌ في الرؤى

والنجوم البعيدات حائرة الخطوِ ،

ثمَّ مدارٌ غريبٌ يدُلّ عليكِ

وما أنتِ عاديةٌ في النساء

رجالٌ كثيرون مرّوا هنا

ربطوا خيلهم ،

ما أقاموا بكهفِ الغريبةِ إلا قليلا

رأيتك في الصبح تحتطبين . .

كثيرٌ من العشبِ قبّلَ ثوبكِ

وهو يجرُّ شغافَ الحنين على الأرضِ . .

ماذا تقولُ الطوالعُ؟

بعض حروفٍ على الكفِّ باهتةُ

وعليها من الجنِّ خيالةٌ بنبال مكسرّةٍ

وأوسطهم عند خطِّ الحياة

أرى نجمةً ووصيفاتِها في حديقةِ أحلامك الغائمةْ ،

وهنا عند تلِّ عطارد

مرَّ جنودُ الأمير وما لحوني

أنا كنتُ قربَ الحديقةِ

من فتحةٍ في الجدار أطلُّ على حجرةِ المرأةِ النائمةْ ،

وشاهدتها

بعينيَّ هاتين عاريةً

مثل زنبقةِ الحقلِ

مشلوحةً فوق عرشِ الرؤى الحالمةْ ،

اضمري وابسطي الكف ،

اضمري

بعد سبع سنين

سيصعدُ نجمُكِ نحو مدارِ الجدي

وهناك سيتبعُكِ الحظُ

لكنْ ستبقين مثلي وحيدةْ ،

ويحرسُ روحَكِ أيلولُ من بلَلِ الماء

ابحثي عن قُصاصةِ ثوب العروس

التي أعرست آخر الصيفِ ،

شُدّي بها شعرَ مهرٍ عريقِ السلالة في الخيلِ ،

مهرٍ وحيدٍ ،

سأعملُ منها حجاباً ليحميكِ من شطط القلبِ

هيا ابسطي الكفَّ

ثمّ اغمضي الآن عينيكِ

ثم اضمِري . .

واضمِري وابسطي الكف

هيا اضمري .

2004

رقص

الليل مبلول بماء الله

والدنيا حرير هابط

وأنا مضاء بالمكانْ

غيماتُه الأولى معلقة على شمع خفيفْ .

والحاضرون يمسُّهم خدرٌ شفيفْ .

قرع الكؤوس يطوف بين الطاولات

والوقت موسيقى وخمر في أكف النادلات

والضوء يسمو مثل صوفي بعيدْ .

الليل ماءْ

والضوء ماءْ

وأنا مضاءْ

باللامكانْ

وتمرُّ قرب البار فاتنة الخطى

وثنية النظرات نافرة الجسدْ

ويشع في يدها النبيذْ

ويشفُّ صوتُ «السكسفون»

يطوف بالأعلى من المعنى

ويعلو «الجاز» ، يعلو في فضاء الليل

يعلو ،

والليل مبلول بماء الله

مبلول بموسيقاه

مبلول بأحلام الشفاه .

- هل ترقص الأحلى هنا بين النساء؟

- شكرا ، سأفعل بعد حين إذْ يغني «الباند» أغنيتي .

- شكرا ، سأنتظرُ

. . . . . .

. . . . . .

- هل يرقص الشاب المهذّب رقصتي الأولى معي؟

الآن يبدو أن أغنيتي تُغنّى

وتشعُ عيناها فأسحبها

إلى حيث الكلام تصوغه القدمانْ

نجمان في المعنى يتهاديانْ

ويوقّعان الأرض إيقاعاً خفيف

الخطو إذْ يتهامسانْ

قدمان راقصتان

عازفتان

تقتربان من قدمين راغبتين

ترتبك المسافةُ والخطى ، يصلان . . . لا يصلانْ

شفة الأميرة «نوتةٌ» غجرية الإيقاعْ

وفم الأميرة محض موسيقى

وأنا أراقص ربة الإغواءْ ،

«سلسا» . . وأسحبها قليلاً

ثم تسحبني

ويضيء خلخال ويفرط حولنا رناته الوثنية الأولى

«سلسا» . .

وأعانق خصرها ، وألفها

وتضيء بين يديَّ ، ثمَّ تضيئني

جسد بهيٌّ نافر

جسد من العزف المعلّق فوق أوتار بعيدات المنى

وأنا ،

بيدين خاطئتين أعزف رعشةَ الجسدِ البهيِّ

يدور بنا المكان يدورُ

«لمبادا» . . وتزحف ذئبة نحوي

تلاحقني كظلّي

أتقيها راغبا شبقاً بساقي

وتدور حولي في الفضاءِ

أدورُ ،

ندخل طقسنا الغجريَّ

«لمبادا» . . يثور الذئب فيَّ ،

يثورُ ،

«لمبادا» . .

نسافر في حكاية رقصنا الأولى

البعيدة تحت سقفِ شجيرة التفاح

لا تفاح في يدنا

ولا ثعبان لا شجرُ

لا جنّة ، لا الله ،

لا قمرُ

وحدي أنا معها

والكوكبان ؛ أنا / هي

راحلان

إلى ذاتيهما

ويطوف بينهما

في السّر سرٌ

لكأنني قبطان مركبة

وكأنها سفرٌ .

2004-1983

رحلوا إلى الماضي بدوني

ماذا يعدُّ أبي

لضيوفنا الآتين ؟

ماذا يعدُّ أبي لأعدائي ؟

ماذا أعدُّ أنا ؟

أقمْ القِرى أبتي

نادِ على الميسور

وانفخْ نارك . .

الضيفان جوعى

جوعى إلى جسدي

ودمي القرى

وجراحيَ الميسور يا أبتي

ونارك في ضلوعي .

لا ترسموني أيُّها الآتونَ

من بنك السماسرة الدمى

رسمي عصيْ

لا ترسموا . . جوعي

وأرحْ خرائطك الغبية يا مهندسُ

إنَّ روحي

روحُ فلاحٍ خفيٍّ

يهتدي بالنجم

في الرحلاتِ

تكلؤه الثريا

وتزفُّهُ الشعرى اليمانيَةْ

وأنا العصيُّ المرُّ

لم آتِ اعتباطاً

سقطت على رأس الكروم الشهبُ

واحتفلت بميلادي القبيلةْ ،

بأصابعي حرَّكتُ غيمَ الروحِ

لـمَّا جفَّ كرمُ أبي

بدمي سقيت النخلَ

وانفتحت ينابيعي على بابي

ونفخت روحي في جرارِ الطِّين

فامتلأت «خوابي»

وقبيلتي لغةُ المواسمِ والحراثةِ والمطرْ

فأرحْ خرائطكَ الغبيةَ يا مهندسُ

واتئدْ في الخطو

هذي الأرضُ روحي

والماء مائي

والمدى زرعي الوفير . .

أنا الثمرْ

وأنا طقوسُ القمحِ والعنبِ البعيد

أنا القمرْ

أنا ابنُ إبراهيمْ .

لا أخوة في الأرض لي إلاَّي

وأنا وحيدُ أبي

أنا ابنُ إبراهيم

يا ابراهيمْ . . . .

قمْ خذ وليدك للتلال البكر

قدِّمْ للإله دماً ومحرقةً

ولمْ يكُ في التلال هناك كبشٌ

كان إبراهيمْ

يتلو صلاةً من حنين

لم يكن إلاّي

وأبي يعد دمي ويجلو

عن تمائمه الأنينْ

أهلي . . .

«هَلي» . . «يَهْلي» . .

أعلى أبي حطباً

وأقام ناراً

لم يكن إلاَّي يا أهلي

وكانت نار محرقة ونصلُ

«يَهْلي» . .

لم يأتِ أهلي

لم يسمعوني أو يروني

أهلي البعيدون ، الخفيون الأُلى

رحلوا إلى الماضي بدوني

اللّه . . .

لم يبقَ إلاَّي

ارتجفتُ لأنهم رحلوا بدوني . .

أهلي . .

ي أهلي . .

يا هلي . .

وأهلي . .

أضاءت محاريثُهم

في الحقولِ البعيدةِ

شفَّ الترابُ عن الغامضِ الغائبِ

ارتبك الماءُ

من رغباتِ الجرارِ العتيقةِ

من شهقةِ الطين

يثغو ، يحنُّ إلى الكهف

ما مرَّ غيرُ «هلي» من هنا

وخيم في السهل غيرُهمو؟

وما شقَّ غيمَ الأماسي الخفيفةِ

غيرُ رباباتهم

وهي تُصعِدُ أحلامها في الفراغ العظيم

هنا

وما مر غيرُهمو

بماعزهمْ ،

بالثغاء العنيد الذي لم يزلْ في أعالي الجبال

بثيرانهمْ ،

بالجياد العتيقة

بالنار تجلو براري المساء .

بيادَرهم لم تزلْ في الخفيِّ من الليل

تومِيءُ بالضوءِ

تسمو قرابينُهم في الخلاء وتصفو

ويعلو صراخُهم الوحشُ ،

يعلو ،

ويرفو قميصَ السماء المطرّزِ بالأدعيةْ

ثور «جلعاد»(*)

(*) جبال زراعية في منطقة البلقاء في الأردن ذكرت في العهد القديم .

يفترعُ الأرضَ ،

يغدقُ ماء الحياة ،

يخورُ ،

ويطعن ثوبَ الصباح الشفيف

بقرنين منتصبينْ

أيُّها القمحُ

أنت صنيعةُ شهوتهِ الفائرةْ ،

أيها الزيتُ

أنت هداياهُ للمرأةِ الباهرةْ ،

بحنائها ،

وبخلخالِها ،

وبالوشم في الشفة الفاترةْ ،

تفيضُ «الكوايرُ»

يمتليء الزقُّ

يجري النبيذُ

تسيلُ خوابي العسلْ ،

تضجُّ الزريبةُ بالبَهْمِ

يدلفُ خيطُ الحليب

الحليبُ أبونا البعيدُ

وجدُّ طفولاتنا

مذ تركناه ذاتَ فطامٍ عتيقٍ

وما مرَّ غيرُ «هلي» من هنا .

ثور «جلعاد»

يفترع الأرضَ

يخلو إلى نبضها البكر ،

يثغو ،

ويجوسُ الترابَ

وأهلي . .

مناجلهم تشعلُ الحقلَ

ركبانهم توقظُ الدربَ

أبناء ذاك الحصان البعيدْ

- طوطم الروحِ -

ليسوا من الجنِّ

لكنَّهم بشر من تجلٍّ عنيدْ

وأرواحهم على شجرِ الوقت

مشلوحة كالنعاس الخفيف

أراهمْ ،

وأشتمُّ قمصانَهم

مضرجةً بالهواءِ القديم

ومعروقةً بالشتاء الكسيف ،

«هلي» أيقظوا القفرَ

بالصخب الحلو

مرّوا على النبع ذات خفاءْ ،

أشعلوا نارهم في الكهوف

ولكنني لم أكنْ معهم

وما مر غيرُ «هلي» من هنا . .

يا «هلي» . .

«يَ ابني» تركناكمْ

على درب الكروم

يضيء ليلَ طريقكم عنبُ الجدود .

«يَ ابني» فلا تنسوا

«يَ ابني» جعلنا من مناجلنا

سياج بهائكم

في المرِّ من أيامكم

فابقوا كما أنتم

وأتوا بأحلام الرعاة إلى الرعاة

«يَ ابني» تعال

أبوك يوصي بالغلالْ

يا بويَ

لم تأتِ الغلالُ ولا الحليب

وأبوك يوصي يا بني :

احرسْ سلالتيَ البعيدةَ يا حبيبي

واسلكْ طريق الوعرِ يا ولدي . .

واحرسْ حنينك

دُلَّني يا أيُّها المعنى عليَّ

ودُلَّ روحي يا بنيَّ

على يديَّ . .

احرسْ سلالتيَ البعيدةَ

يا نبيْ . .

لا ترسموني أيُّها الآتون من بنكِ السماسرة الغبيْ

رسمي عصيْ . .

لا ترسموا جوعي ،

وأرحْ خرائطك الغبيةَ يا مهندسُ

إنَّ روحي روحُ فلاحٍ خفيْ

1995

المحتويات

اشتعالات

١- كلام	11
٢- طقوس	14
٣- التحية	17
٤- عاشقة	20
٥- قبلة	24
٦ - وردة	27
٧- صلاة الجسد	29
٨- «ماشا» وأغنية الغجري	32

باب الماء

٩- البحر 41

١٠- السابحة 46

١١- امرأة الرصيف العائم 51

١٢- سورة الماء 58

١٣- مطر وتمثال 62

١٤- زبد الموج 66

مدارات أولى

١٥- العناصر 71

١٦- الصديق 75

١٧- الرغيف 82

١٨- لنساء لم يولدن بعد 86

١٩- إرث 89

٢٠- دعاء الورد 92

الخيانات والوعد

٢١- خيانة الفضة 97

٢٢- خيانة الورد 99

٢٣- خيانة النهر 101

٢٤- الوعد 103

فضاءات أخرى

٢٥- كرسي الاعتراف 109

٢٦- أمرأة متخيلة 113

٢٧- فريسكو على جدار غائم 115

٢٨- هوذا يولد كالنخل 124

٢٩- كما يرى الرائي 134

٣٠- قراءة في كف امراة 143

٣١- رقص 149

٣٢- رحلوا إلى الماضي بدوني 156